غاية العبادة في الإسلام أو لماذا نعبد الله؟

- لماذا نعبد الله؟
- العبادة غذاء للروح.
- العبودية لله سبيل الحرية.
- العبادة ابتلاء إلهي يصقل الإنسان.
- العبادة حق الله على عباده.
- العبادة طلبًا للثواب وخوفًا من العقاب.
- هل العبادة مجرد وسيلة لتهذيب النفس.
- صلاح النفس ثمرة للعبادة الحقة وليس علة لها.
- مقصد أصلي ومقاصد تابعة للعبادة.
- استكبار عن عبادة الله.
- صفات المؤمنين بين العبادة والأخلاق.
- عبادة المؤمن لون من الأخلاق. . وأخلاقه لون من العبادة.

● لماذا نعبد الله؟

عرفنا أن رسالة الإنسان في الوجود هي عبادة الله وحده. .

وعرفنا أن العبادة هي غاية الخضوع الممزوج بغاية الحب لله. .

وعرفنا أن العبادة – في الإسلام – ، تشمل الدين كله ، وتسع الحياة بمختلف جوانبها.

وبقي هنا سؤال قد يسأله بعض الناس. وهو : لماذا نعبد الله تعالى؟ وبعبارة أخرى : لماذا فرض الله علينا عبادته وطاعته وهو الغني عنا؟ وما الغاية من تكليفنا هذه العبادة؟ هل يعود عليه – سبحانه – نفع من عبادتنا له ، وخشوعنا لوجهه؟ ووقوفنا ببابه ، وانقيادنا لأمره ونهيه جل شأنه؟ أم النفع يعود علينا نحن المخلوقين؟ وما حقيقة هذا النفع إن كان؟ أم الهدف هو مجرد الأمر من الله والطاعة منا؟

والجواب : أنه – تبارك اسمه – لا تنفعه عبادة من عبده ، ولا يضره إعراض من صد عنه. ولا يزيد في ملكه حمد الحامدين ، ولا ينقصه جحود الجاحدين. فهو الغني ونحن الفقراء إليه ، وهو الودود الكريم ، والبر الرحيم ، الذي لا يأمرنا إلا بما فيه خيرنا وصلاحنا نحن المخلوقين. فضلًا عن حقه – تعالى – في أن يفرض علينا ما يشاء ، يكلفنا ما يريد. بحكم خلقه لنا وإنعامه علينا. وبحكم عبودتنا الطبيعية القسرية له سبحانه ، فهو لا يكلفنا إلا بما ينفعنا نحن ويصلحنا نحن المحتاجين إليه في كل نفس من أنفاس حياتنا ، وهو الغني غنى ذاتيًا. إذ كيف يحتاج الخالق إلى من خلق؟

وقد أخبرنا على لسان سليمان في القرآن : ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل : ٤٠] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان : ١٢] وقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٧] وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] وقال عز وجل في الحديث القدسي : «يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»[1].

وإذا كان الله سبحانه له هذا الغنى المطلق فلماذا إذن كلف عباده أن يعبدوه ويطيعوه؟

وأظن – بعد أن يعرف الإنسان جواب الأسئلة الخالدة : من أين ، وإلى أين ولم – أن من السهل أن يعرف جواب هذا السؤال. إنه كامن في طبيعة الإنسان نفسه ، وطبيعة مهمته في الأرض ، والغاية التي أُعد لها من وراء هذه الحياة.

● العبادة غذاء للروح

(أ) فالإنسان ليس هو هذا الغلاف المادي الذي نحسه ونراه ، والذي يطلب حظه من طعام الأرض وشرابها. ولكن حقيقة الإنسان في ذلك الجوهر النفيس الذي به صار إنسانًا مكرمًا سيدًا على ما فوق الأرض من كائنات. ذلك الجوهر هو الروح. . الذي يجد حياته وزكاته في مناجاة الله عز وجل. وعبادة الله هي التي توفر لهذا الروح غذاءه ونماءه ، وتمده بمدد يومي لا ينفد ولا يغيض.

ولئن تراكم على هذا الجوهر المعنوي الغفلة والغرور ، وران عليه صدأ الجحود أو الشك ، لقد تهب عواصف المحن فتزيح الغبار ، أو تندلع نار الشدائد فتجلو الصدأ. وسرعان ما يعود الإنسان إلى ربه فيدعوه ويتضرع إليه. وهذه حقيقة ذكرها القرآن ، وأيدتها وقائع الحياة : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس : ٢٢].

إن القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى الله ، وهو شعور أصيل صادق لا يملأ فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود ، وهذا ما تقوم به العبادة إذا أديت على وجهها.

---

(١) رواه مسلم.

يقول ابن تيمية رحمه الله :

«القلب فقير بالذات إلى الله من جهتين : من جهة العبادة. . . ومن جهة الاستعانة والتوكل. . فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر، ولا يلتذ ولا يطيب، ولا يسكن ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحده وحبه والإنابة إليه. ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه - بالفطرة - من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه. وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة والنعمة، والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له؛ فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادة لله، فلم يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله بحيث يكون الله هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئًا لذاته إلا الله»[1].

وهكذا كلما أخلص المرء العبودية لله وجد نفسه، واهتدى إلى سر وجوده، ووجد مع ذلك سعادة روحية لا تدانيها سعادة. . تتمثل فيما سماه الرسول «حلاوة الإيمان».

وإن لهذه الحلاوة لطعمًا لا يتذوقه إلا من عرف الله، وآثره على كل ما سواه.

قال ابن القيم رحمه الله[2] : «إنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس؛ وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن».

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية، أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه. والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي

---

(١) العبودية ص ١٠٨، ١٠٩ .

(٢) إغاثة اللهفان جـ ٢ ص ١٩٧ .

تناله أعلى من كل لذة. كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفى عيش طيب.

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له.

وقال آخر : مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها فقيل له : وما هو؟ قال : محبة الله والأنس به ، ومثل هذا ما قاله الآخر : أطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته. وأطيب ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة.

وقال آخر – من أهل معرفة الله وطاعته – : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف!

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها ، بحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه ، وكلما كانت المحبة أكمل ، وإدراك المحبوب أتم ، والقرب منه أوفر ، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف ، وفيه أرغب ، وله أحب ، وإليه أقرب ، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه ، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد ، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبًا لغيره ، ولا أنسًا به ، وكلما ازداد له حبًّا ازداد له عبودية وذلًّا ، وخضوعًا ورقًّا له ، وحرية عن رق غيره.

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا ينعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبه ، والإنابة إليه ، وكلما تمكنت محبة الله من القلب ، وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه وعبوديته له :

فأصبح حرًّا عزة وصيانة على وجهه أنواره وضياؤه

وقال الإمام فخر الدين الرازي :

«اعلم أن من عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها ، وثقل عليه الاشتغال بغيرها».

وبيانه من وجوه :

الأول : أن الكمال محبوب بالذات ، وأكمل أحوال الإنسان اشتغاله بعبادة الله ، فإنه يستنير قلبه بنور الإلهية ، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والقراءة ، وتتجمل أعضاؤه بجمال خدمة الله ، وهذه الأحوال أشرف المراتب الإنسانية ، والدرجات البشرية. فإذا كان حصول هذه الأحوال أعظم السعادات الإنسانية في الحال ، وهي موجبة أيضًا لأكمل السعادات في الزمان المستقبل ، فمن وقف على هذه الأحوال ، زال عنه ثقل الطاعات ، وعظمت حلاوتها في قلبه.

الثاني : أن العبادة أمانة ، بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب : ٧٢].

وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات. ولأن أداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثاني؛ قال بعض الصحابة : رأيت أعرابيًا أتى باب المسجد فنزل عن ناقته وتركها ودخل المسجد ، وصلى بالسكينة والوقار ودعا بما شاء ، فتعجبنا ، فلما خرج لم يجد ناقته ، فقال : أديت أمانتك فأين أمانتي؟! قال الراوي : فزدنا تعجبًا! فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته. . وسلم الناقة إليه.

قال الرازي : والنكتة أنه لما حفظ أمانة الله حفظ الله أمانته ، وهو المراد من قوله عليه السلام لابن عباس : «احفظ الله. . . يحفظك. .»[1].

الثالث : أن الاشتغال بالعبادة انتقال من عالم الغرور إلى عالم السرور. ومن الاشتغال بالخلق إلى حضرة الحق ، وذلك يوجب كمال اللذة والبهجة. يحكى عن أبي حنيفة أن حية سقطت من السقف وتفرق الناس ، وكان أبو حنيفة في الصلاة ولم يشعر بها. . . ومن استبعد هذا فليقرأ قوله تعالى في قصة يوسف - ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف : ٣١]. فإن النسوة لما غلب على قلوبهن جمال يوسف عليه السلام ، وصلت تلك الغلبة إلى حيث قطعن أيديهن وما شعرن بذلك. فإذا جاز هذا في حق البشر فلأن يجوز عند استيلاء عظمة الله على القلب أولى. ولأن من دخل على ملك مهيب فربما مر به أبواه

---

(١) رواه الترمذي.

وبنوه وهو ينظر إليهم ولا يعرفهم، لأن استيلاء هيبة ذلك تمنع القلب عن الشعور بهم. فإذا جاز هذا في حق ملك مخلوق، فلأن يجوز في حق خالق العالم أولى»[1].

وبهذا نتبين أن الذي يذوق طعم الإيمان الحق، وتزهر في قلبه مصابيح اليقين، لا ينظر إلى العبادة على أنها مجرد خضوع أو «تنفيذ أوامر» فحسب، إنه يجد فيها تلذذًا بمناجاة الله وطاعته، والسعي في مرضاته، ويجد فيها سعادة لا تدانيها سعادة أصحاب القصور والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. وقد كان النبي ﷺ ينتظر فريضة الصلاة انتظار الظمآن اللهف إلى شربة الماء العذب الزلال، ويهرع إليها كما يهرع السائر في الصحراء إلى الواحة الخضراء. وكان يقول لبلال -في شوق ولهفة- إذا حان وقتها: «أرحنا بها يا بلال»[2]. وقالت زوجه عائشة: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه. فلا عجب أن يقول عليه السلام: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[3].

إن المؤمن ليجد في عبادة ربه في ساعة الشدة، سكينة لنفسه، وأنسًا لوحشته، وانشراحًا لصدره، وتخفيفًا عن كاهله، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ -٩٩]. فدله على العبادة إذا ضاق صدره بأقاويل المتقولين، وأكاذيب المفترين.

وفي ساعة المنحة والنعمة يتذوق المؤمن حلاوة الشكر للمنعم، والحمد لذي الجلال والإكرام. وما أروع خطاب الله لنبيه في مثل هذا الموقف: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر].

(١) التفسير الكبير للرازي جـ ١ ص ٢٤٩، ٢٥٠.
(٢) رواه أبو داوود.
(٣) رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي.

● العبودية لله سبيل الحرية

(ب) ثم إن العبودية الخالصة لله هي – في واقع الأمر – عين الحرية. وسبيل السيادة الحقيقية ، فهي – وحدها – التي تعتق القلب من رق المخلوقين ، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآلهة والطواغيت التي تستعبد الناس وتسترقهم أشد ما يكون الاسترقاق والاستعباد ، وإن ظهروا – صورة وشكلًا – بمظهر السادة الأحرار!

ذلك أن في قلب الإنسان حاجة ذاتية إلى رب ، إلى إله ، إلى معبود ، يتعلق به ، ويسعى إليه ، ويعمل على رضاه ، فإذا لم يكن هذا المعبود هو الله الواحد الأحد ، تخبط في عبادة آلهة شتى وأرباب أخر. مما يرى وما لا يرى ، وممن يعقل ، وما لا يعقل ، ومما هو موجود وما ليس بموجود ، إلا في الوهم والخيال.

وليس أشرف للإنسان العاقل من أن يعبد من خلقه فسواه فعدله ، ويطرح عبادة كل ما سواه ومن سواه.

وليس أجلب لسعادته وسلام ضميره من توجيه همه إلى إله واحد يخصه بالخضوع والحب ، فلا تتوزع قلبه الآلهة والأرباب المزيفون ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ؟ [الزمر : ٢٩].

فالعبد السالم لسيد واحد قد استراح : إذ عرف ما يرضي سيده فأداه بارتياح وانشراح. أما العبد الذي يملكه شركاء متشاكسون يأمره أحدهم بعكس ما يأمره غيره ، فما أتعسه وما أشقاه! !

يقول ابن تيمية :

«وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره. فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «أصدق الأسماء حارث وهمام» فالحارث : الكاسب الفاعل ، والهمّام : فعّال من الهم. والهم أول الإرادة. فالإنسان له إرادة دائمًا. وكل إرادة فلابد لها من مراد تنتهي إليه. فلابد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلابد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله ، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب : إما المال ،

وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلهًا من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والأوثان، وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابًا، أو غير ذلك مما عبد من دون الله.

وإذا كان عبدًا لغير الله يكون مشركًا، وكل مستكبر فهو مشرك. ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكبارًا عن عبادة الله، وكان مشركًا. قال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ - يعني فرعون - إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٢٧ - ٣٥].

وقد وصف فرعون بالشرك في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ ؟ ! [الأعراف: ١٢٧].

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارًا عن عبادة الله. كان أعظم إشراكًا بالله؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقرًا وحاجة إلى المراد المحبوب الذي هو مقصود القلب بالقصد الأول، فيكون مشركًا بما استعبده من ذلك.

«ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا لله ولا يبغض شيئًا إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله.

فكلما قوي إخلاص دينه لله، كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات. وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك»[1].

● العبادة ابتلاء إلهي يصقل الإنسان

(جـ) والحياة التي نحياها هذه - طالت أو قصرت - ليست هي الغاية ولا إليها المنتهى، وما هي إلا محطة انتقال إلى حياة أخرى ودار أخرى؛ حياة البقاء، ودار الخلود. وفي بعض الآثار: «إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار» وقال الشاعر:

---

(١) العبودية: ص ١١٢ - ١١٤.

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

فالمعول عليه إذن إنما هو الدار الأخرى ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤].

والإنسان في هذه الدار الفانية إنما يستصلح لتلك الدار الباقية. يستخلفه الله هنا ليعد ويصقل للخلود هناك. ولا شيء يصقله ويهذبه ويعده مثل الابتلاء، فهو البوتقة التي تصهر فيها النفس ويصفو الروح.

فقد شاء الله أن يخلق الإنسان نوعًا متميزًا على غيره، بما ركب فيه من عناصر مزدوجة، يمكن أن تصعد به إلى السماء، وأن يهبط بها إلى الأرض، ففيه الغريزة والشهوة، وفيه العقل والإرادة؛ فيه المادة، وفيه الروح، وقد دل هذا الخلق على أن الإنسان مسئول ومبتلى. وهذا هو السر في استعداده لحمل المسئولية، وأمانة التكاليف الإلهية التي عبّر عنها القرآن تعبيرًا بديعًا فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ﴾ [الأحزاب : ٧٢].

لقد كان ما أوتي الإنسان من عقل وإرادة وضمير واستطاعة، وما يُسّرَ له من أسباب، نعمة عليه أي نعمة، وتكريمًا له أي تكريم، ولكنها كانت تحمل في طيها ابتلاء له أي ابتلاء: أيشكر أم يكفر؟ أيطيع ربه أم يتمرد عليه؟

وهكذا ذكر القرآن الكريم أن الله سبحانه إنما خلق السموات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها؛ ليبتلي عباده ويمتحنهم - وهو بهم أعلم - ليظهر من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ [هود : ٧].

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك : ١].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف : ٧].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان : ٢].

إن هذه الحياة الدنيا لا تعطي حصادها إلا لمن يزرعون، ولا جناها إلا لمن يغرسون، ولا ينال المرء فيها ما يحب إلا بصبره على ما يكره، ولا يتحقق له أمل يصبو إليه إلا بعد أن يجتاز امتحانات عسيرة، ويتحمل مشقات شديدة. ولذلك لا يطمع في إدراك المعالي وتحقيق الآمال الكبيرة إلا أولو العزم وأصحاب النفوس الكبيرة. وفي هذا يقول المتنبي:

ذريني أنل ما لا ينال من العلا فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل!

هذا شأن حياتنا هذه القصيرة، فكيف بحياة الخلود؟ أيريد الإنسان أن يحظى بنعيمها ورضوان الله فيها، ويسعد بالنظر إلى وجهه الكريم، دون جهد ولا ابتلاء ودون أن يسعى لها سعيها؟ إذن يستوي القاعدون والمجاهدون، يستوي الكسالى والعاملون، يستوي الطالحون والصالحون. وهم في عدالة الله لا يستوون! !

لقد عرفنا من عدالة السنن الإلهية في الكون أن الشيء النفيس لا يدرك إلا بجهد كبير، وكلما كانت نفاسته أظهر، احتاج إلى جهد أكبر، فهل هناك شيء أنفس وأعظم من الآخرة الباقية، من الحياة الأبدية، من رضوان الله تعالى؟ لا والله. ولهذا حُفت الجنة بالمكاره، ومُلئ طريقها بأشواك الابتلاء.

ومن هنا قال الإنجيل: «ما أضيق الطريق الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية»! وما ضيقه إلا تكاليف العبودية والتزامات الإيمان.

وقال القرآن العظيم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾؟ [آل عمران: ١٤٢].

● العبادة حق الله على عباده

(د) والعبادة -فوق ذلك كله- هي حق الخالق -جل شأنه- على خلقه.

وفي ذلك روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: يا معاذ. أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا».

وليس بمستنكر أن يكون لله علينا حق عبادته وحده سبحانه، بل المستنكر أن يكون غير هذا. المستنكر أن نعبد ما دون الله أو من دون الله، فنؤدي الحق لغير أهله. أو نزعم لأنفسنا الاستقلال عن الله فنجحد عبوديتنا له بغير حق.

إننا لم نكن شيئًا مذكورًا ثم كنا: خرجنا من ظلمة العدم إلى نور الوجود، ثم كنا نوعًا مكرمًا من الخليقة: خُلِقْنا في أحسن تقويم، وصُوِّرْنا في أحسن صورة، وعُلمنا البيان، وأوتينا العقل والإرادة، وسخرت الكائنات حولنا لخدمتنا: الأرض لنا مهاد وفراش، والسماء لنا سقف وبناء، والشمس تمدنا بالضوء والحرارة، والكواكب تهدينا وتزين سقفنا، والبحار تجري فيها سفائننا بأرزاقنا، والماء ينزل من السماء ليكون لنا شرابًا طهورًا، ونسقي منه أنعامًا وأناسي كثيرًا.

ترى من الذي فعل ذلك كله؟ أما نحن فلم نخلق أنفسنا ولم نصنع ذرة مما حولنا.. ولم يدّع بشر ولا جن ولا ملاك: أنه صانع ذلك ومدبره. فمن هو صاحب العلم الواسع والحكمة البالغة والقدرة القاهرة والإرادة الفعالة. الذي صنع هذا الكون الدقيق فأحكمه، ورتبه فأحسنه؟ والذي خلق الإنسان فأحسن خلقه، وسخَّر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة؟

إنه الله الذي شهدت بربوبيته الفطر السليمة، وأقرت بوجوده وكماله ووحدانيته العقول النيرة ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾؟ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ [يونس: ٣١، ٣٢].

فلا عجب أن يكون لهذا الخالق المنعم حق العبادة والاستعانة به والابتهال إليه، والوقوف

ببابه الكريم موقف الضراعة والتسليم والانقياد ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ [الأعلى : ١ - ٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١ ، ٢٢].

هذه العبادة إذن هي حق الربوبية على العبودية ، حق الخالق على الخلق ، حق الكريم الذي أحسن وأنعم على من أحسن إليه وأنعم عليه.

ألا إن من كنود الإنسان لربه ، وظلمه لنفسه ، أن يشكر للخلق ولا يشكر للخالق ، وأن يأسره إحسان من أحسن إليه من الناس ولا يأسره إحسان الله إليه ، وهو يغمره من قرنه إلى قدمه ، من يوم أن كان نطفة فعلقة فمضغة ، إلى ما شاء الله من أطوار الحياة! واقرأ إن شئت قول الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٢ - ٣٤].

وظلم الإنسان وكفرانه هو الذي عجب منه ربنا في الحديث القدسي : «إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري! وأرزق ويشكر سواي! خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إليّ صاعد! أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، فيتعرضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر شيء إليّ»! !

فالله الخالق المنعم هو المستحق للعبادة وحده ، أما ما دون الله فلا يستحقون عبادة الإنسان وهم مثله مخلوقون مرزقون مربوبون! ! ولهذا قال ابن سيده فيما نقلناه في أول الكتاب : «العبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة والفهم والسمع والبصر. . . لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا من كان له

أعلى جنس من النعمة – وهو الله – فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله».

وبهذا كله نعلم أن العبادة مطلوبة في الدين طلب الغايات والمقاصد، لا طلب الأدوات والوسائل. أعني أنها في الدرجة الأولى: امتثال لأمر الله ووفاء بحقه سبحانه. فهي مطلوبة لذاتها، قبل أي شيء آخر في هذه الحياة.

● العبادة طلبًا للثواب وخوفًا من العقاب

هل يجوز أن يُعبد الله طمعًا في ثوابه وخوفًا من عقابه؟ بعبارة أخرى: طلبًا لجنته، وهربًا من ناره؟

لقد شنَّع الصوفية على من عبد الله بهذا القصد. وقالوا: لا ينبغي للعابد أن يعبد الله ويقوم بأمره ونهيه، خوفًا من عقابه أو طمعًا في ثوابه. فإن مثل هذا العابد واقف مع غرضه وحظ نفسه، ومحبة الله حقًّا تأبى ذلك وتنافيه. فإن المحب لا حظ له من محبوبه، فوقوفه مع حظه علة في محبته، كما أن طمعه في الثواب تطلع إلى أنه يستحق بعمله على الله تعالى أجرة. وفي هذا آفتان: تطلعه إلى الأجرة، وإحسان ظنه بعمله. ولا يخلصه من ذلك إلا تجريد العبادة والقيام بالأمر والنهي من كل علة، بل يقوم به تعظيمًا للآمر الناهي، وأنه أهل أن يُعبد وتُعظّم حرماته. فهو يستحق العبادة والتعظيم والإجلال لذاته. كما في الأثر الإلهي: «لو لم أخلق جنة ولا نارًا. أما كنت أهلًا أن أعبد»؟[1] ومنه قول القائل:

هب البعث لم تأتنا رسله ... وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق ... ثناء العباد على المنعم؟

فالنفوس الزكية العلية تعبده، لأنه أهل أن يُعبد، ويُجل ويُحب ويُعظم، فهو لذاته مستحق للعبادة. قالوا: ولا يكون العبد مع ربه، كأجير السوء: إن أُعطي أجره عمل، وإن لم يُعط لم يعمل. فهذا عبد الأجرة، لا عبد المحبة والإرادة.

ولهذه يروون عن رابعة الأبيات المشهورة:

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النجاة حظًّا جزيلًا

---

(١) ذكر ابن القيم في المدارج: إنه أثر إسرائيلي.

أو بأن يدخلوا الجنان فيحظوا بنعيم ويشربوا سلسبيلًا
ليس لي في الجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بحبي بديلًا

ومن علماء المسلمين من رد هذا الكلام. واعتبره من شطحات القوم ورعوناتهم، ولم ير أي حرج أو نقص في عبادة الله خوفًا وطمعًا، ورغبًا ورهبًا. واحتج هؤلاء العلماء بأحوال الأنبياء والرسل الصديقين والصالحين، ودعائهم والثناء عليهم - في كتاب الله - بخوفهم من النار، ورجائهم للجنة. كما قال تعالى في خواص عباده الذين عبدهم المشركون ودعوهم من دون الله أو مع الله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وذكر سبحانه عباده الذين شرفهم بالإضافة إلى اسمه «الرحمن» فسماهم «عباد الرحمن» وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، فجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

وأخبر عنهم أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]. فجعلوا أعظم وسائلهم إليه، وسيلة الإيمان، أن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنته، ويتعوذون به من ناره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ الآية [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥].

ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله هو الجنة التي سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

[الشعراء : ٨٢ - ٨٧].

فسأل الله الجنة واستعاذ به من النار وهو الخزي يوم البعث.

وأخبرنا سبحانه عن الجنة : أنها كانت وعدًا عليه مسئولًا ، أي يسأله إياها عباده وأولياؤه.

وأمر النبي ﷺ أمته أن يسألوا له في وقت الإجابة -عقيب الأذان- أعلى منزلة في الجنة ، وأخبر أن من سألها له حلّت عليه شفاعته.

وقال له سليم الأنصاري : «أما إني أسأل الله الجنة ، وأستعيذ به من النار ، لا أحسن دندنتك ، ولا دندنة معاذ! فقال ﷺ : «أنا ومعاذ حولها ندندن»!.

وفي الصحيح ، في حديث الملائكة السيّارة : أن الله تعالى يسألهم عن عباده -وهو أعلم بهم- فيقولون : أتيناك من عند عبادك يهللونك ويكبرونك ويحمدونك ، ويمجّدونك. فيقول عز وجل : وهل رأوني؟ فيقولون : لا ، يا رب ، ما رأوك. فيقول عز وجل : كيف لو رأوني؟ ! فيقولون : لو رأوك لكانوا لك أشد تمجيدًا. قالوا : يا رب ، ويسألونك جنتك. فيقول : هل رأوها؟ فيقولون : لا. وعزتك ما رأوها. فيقول : فكيف لو رأوها؟ ! فيقولون : لو رأوها لكانوا لها أشد طلبًا. قالوا : ويستغيثون بك من النار. فيقول عز وجل : وهل رأوها؟ ! فيقولون : لا ، وعزتك ما رأوها ! فيقول : فكيف لو رأوها؟ ! فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد منها هربًا. فيقول : إني أشهدكم أني قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأعذتهم مما استعاذوا».

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده -تعالى- وأوليائه بسؤال الجنة ودرجاتها ، والاستعاذة من النار والخوف منها.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه: «استعيذوا بالله من النار» وقال لمن سأله مرافقته في الجنة: «أعنّي على نفسك بكثرة السجود».

قالوا: والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار، مقصود الشارع من أمته، ليكونا دائمًا على ذكر منهم. فلا ينسونهما. ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة. والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار، هو محض الإيمان.

وقد حض النبي ﷺ أصحابه وأمته على طلب الجنة، فوصفها وجلّاها لهم ليخطبوها. وقال: «ألا مشمّر للجنة؟ فإنها - ورب الكعبة - نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة، وقصر مشيد، ونهر مطرّد». الحديث. فقال الصحابة: يا رسول الله.. نحن المشمرون لها. فقال: «قولوا: إن شاء الله».

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله ﷺ: «من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة» تحريضًا على عمله لها، وأن تكون هي الباعثة على العمل، لطال ذلك جدًّا. وذلك في جميع الأعمال.

فكيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولًا، والرسول ﷺ يحرّض عليه؟! قالوا: وأيضًا، فالله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته، ويستعيذوا به من ناره، فإنه يحب أن يُسئل. ومن لم يسأله يغضب عليه. وأعظم ما سئل «الجنة» وأعظم ما استعيذ به من «النار».

قالوا: وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه، والهرب من هذه، فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهَي باعثه، وكلما كان أشد طلبًا للجنة وعملًا لها، كان الباعث له أقوى، والهمة أشد، والسعي أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق.

قالوا: ولو لم يكن هذا مطلوبًا للشارع، لما وصف الجنة للعباد، وزيّنها لهم، وعرضها عليهم، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه أخبرهم به مجملًا، تشويقًا لهم إليها، وحثًّا لهم على أن يسعوا لها سعيها[١].

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ ٢ ص ٧٥ - ٧٩، مطبعة السنة المحمدية.

على أن الإمام ابن القيم وقف موقفًا وسطًا بين الصوفية وبين من رد عليهم وخطّأهم من علماء الأمة فقال – بعد أن حكى قول أولئك ورد هؤلاء :

«والتحقيق أن يقال : الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه. والطعام والشراب ، والحور العين ، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة ، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة : التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه. وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه. فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدًا. فأيسر يسير من رضوانه ، أكبر من الجنان وما فيها من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] وأتى به منكّرًا في سياق الإثبات ، أي : أي شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يكفيني ، ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح – حديث الرؤية – «فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إلى وجهه». وفي حديث آخر : «إنه سبحانه إذا تجلى لهم ، ورأوا وجهه عيانًا ، نسوا ما هم فيه من النعيم ، وذهلوا عنه ولم يلتفتوا إليه».

قال ابن القيم : ولا ريب أن الأمر هكذا ، وهو أجَلُّ مما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال ، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعيّة المحبة ، فإن المرء مع من أحب. فأي نعيم ، وأي لذة ، وأي قرة عين ، وأي فوز ، يداني نعيم تلك المعية ولذتها وقرة العين بها؟

وهذا والله هو العلم الذي شمَّر إليه المحبون ، واللواء الذي أمَّه العارفون ، وهو روح مسمّى الجنة وحياتها ، وبه طابت الجنة ، وعليه قامت.

فكيف يقال : لا يُعبد الله ، طلبًا لجنته ، ولا خوفًا من ناره؟

وكذلك النار أعاذنا الله منها. فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته ، وغضبه وسخطه ، والبعد عنه ، أعظم من التهاب النار في أجسامهم.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين هو : الجنة ، ومهربهم : من النار»[1]. اهـ.

● هل العبادة مجرد وسيلة لتهذيب النفس ؟

وهناك دعوة خبيثة شريرة يروجها بعض الملحدين المستكبرين عن عبادة الله ، فتجد هؤلاء يستغلون ما جاء به الدين نفسه من رد العبادة السطحية المرائية التي لا تنفذ إلى القلب ، ولا تزكي النفس ، لا تنهى عن فحشاء أو منكر- يستغلون هذا ليقولوا : إن الغرض من الأديان وعقائدها وعباداتها إنما هو إصلاح النفس وتربية الضمير ، واستقامة الخلق. . فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة بأي وسيلة أخرى كالتهذيب النفسي المجرد ، والتربية الأخلاقية المدنية ، فلسنا بحاجة إلى العبادة والشعائر والصلوات والمناسك ، فإنما هذه وسائل لا غايات. وقد انتهينا إلى الغاية التي يريدها الله منا ، فما تشبثنا بالوسيلة وما حاجتنا إليها؟

هذه هي الدعوة الجاحدة الماكرة التي ذهب إليها بعض المتفلسفين قديمًا وبعض المنحرفين حديثًا. وهي دعوة باطلة يراد بها باطل.

● صلاح النفس ثمرة للعبادة الحقة وليس علة لها

أما أنها دعوة باطلة ، فلأن العبادة مطلوبة لذاتها ، وغاية في نفسها ، بل هي -كما أوضح القرآن- مراد الله من خلق المكلفين إنسًا وجنًّا ، بل هي الغاية وراء خلق السموات والأرض ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق : ١٢].

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات : ٥٦].

والمقصود الأول من العبادة -كما ذكرنا- هو أداء حق الله عز وجل.

والمقصود بالعبادة أن يعرف الإنسان نفسه فقيرًا لا حول ولا قوة له إلا بربه ، ولا اعتماد له إلا عليه ، ولا قيام له بذاته ، ويعرف ربه عليًّا كبيرًا ، غنيًّا عن العالمين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٨٠ ، ٨١ .

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧].

إظهار العبودية لرب العالمين، وامتثال أمره سبحانه فيما تَعَبَّد به خلقه هو علة العبادات كلها من صلاة وصيام، وزكاة وحج وتلاوة وذكر ودعاء واستغفار واتباع للشريعة، والتزام بأحكام الحلال والحرام. أما صلاح النفس وزكاة الضمير واستقامة الأخلاق، فهي ثمرة لازمة للعبادة الحقة؛ وليست علة غائية لها، لهذا قال تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] فالتعبير بـ «لعل» هنا التي تفيد الترجي - دون التعبير بلام التعليل أو «كي» - يفيد أن العبادة أو الصيام تجعلهم على رجاء التقوى وتعدهم لها.

وحتى لو ذكر التعليل صريحًا ما أفاد ذلك ترك العبادة إذا لم تؤد إلى التقوى، وإنما تفيد إعادة النظر في العبادة وإحسانها حتى تؤتي أُكُلها من تقوى الله وخشيته. ولو فرضنا أن قلنا لفلاح: ازرع لتحصد، فزرع ولم يحصد الحصاد المرجو، لتقصيره في بعض ما كان واجبًا عليه أن يرعاه، لم يكن معنى ذلك أن نقول له: اترك الزرع والغرس. مع أنه مهنته التي لا وظيفة له غيرها. وكل ما يقال له: ابذل جهدًا أكثر، ووف عملك حقه من الإتقان، لتحصل على ثمرة أفضل.

وهذا ما أجاب به الرسول الكريم ﷺ حين ذكروا له قومًا يصلون ولكنهم يقومون بأمور لا تليق بمن يقيم الصلاة فقال لهم: إن صلاتهم ستنهاهم! !

ولو أن إنسانًا صلى الصلوات الخمس أو صام رمضان مثلًا ولم يقصد في ذلك إلا تزكية نفسه، وتربية خلقه، دون الالتفات إلى حق الله عليه، والقيام بواجب العبودية له جل شأنه، ما كانت هذه الصلاة وذاك الصيام إلا عادة من العادات لا يؤبه لها في ميزان الحق، ولا تحظى بذرة من القبول عند الله.

● مقصد أصلي ومقاصد تابعة للعبادة

ذلك أن للعبادة - كما قال الإمام الشاطبي - مقصدًا أصليًا ومقاصد تابعة، فالمقصد الأصلي فيها هو التوجه إلى الواحد المعبود، وإفراده بالقصد إليه في كل حال: ويتبع ذلك

قصد التعبد لنيل الدرجات في الآخرة أو ليكون من أولياء الله تعالى وما أشبه ذلك. ومن المقاصد التابعة للعبادة صلاح النفس، واكتساب الفضيلة.

قال الشاطبي: «فالصلاة مثلًا، أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه، بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له. قال تعالى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] - يعني أن اشتمال الصلاة على التذكير بالله أكبر وأعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر، لأن ذكر الله هو المقصود الأصلي - وفي الحديث «إن المصلي يناجي ربه» (١).

«ثم إن لها مقاصد تابعة كالنهي عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة إليها من أنكاد الدنيا، كما في الخبر: «أرحنا بها يا بلال»(٢) وفي الصحيح: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»(٣). وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة. . وطلب الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي الفائدة العامة الخالصة، وكون المصلي في خفارة الله. وفي الحديث «من صلى الصبح لم يزل في ذمة الله»(٤). ونيل أشرف المنازل قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩] فأعطي بقيام الليل المقام المحمود».

«وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية، وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية، وهي الانقياد والخضوع لله».

ولا حرج على المؤمن أن يطلب بعبادته الفوائد الأخروية من الفوز بالجنة والنجاة من النار. فإن هذا داخل تحت معنى الرجاء في مثوبة الله، والخشية من عذابه، وهو ضرب من العبودية لرب العالمين، والخوف والرجاء بهذا المعنى لا يقدح في الإخلاص لله - كما بيناه من قبل.

أما الفوائد الدنيوية فلا يجوز أن تكون الباعث الوحيد للعبادة، سواء أكانت مادية أم معنوية.

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه الدارقطني وأبو داوود.
(٣) رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي وليس في الصحيح.
(٤) رواه مسلم.

وقد أنكر الراسخون من العلماء ما كان يشيع في رحاب التصوف وبين بعض أتباعه ومريديه من التعبد بقصد تجريد النفس، وتصفيتها من الشواغل والعلائق، لتكون أهلًا للاطلاع على عالم الأرواح ورؤية الملائكة، وخوارق العادات، ونيل الكرامات، والحصول على «العلم اللدني» الموهوب من لدن الله. . وما أشبه ذلك.

أنكروا هذا وقالوا: إنه خروج عن طريق العبادة، وتخرص على علم الغيب، ويزيد بأن جعل عبادة الله وسيلة إلى ذلك، وهو أقرب إلى الانقطاع عن العبادة؛ لأن صاحب هذا القصد داخل -بوجه ما- تحت قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. كذلك هذا؛ إن وصل إلى ما طلب فرح به وصار قصده من التعبد، فقوي في نفسه مقصوده وضعفت العبادة.

وإن لم يصل رمي بالعبادة، وربما كذَّب بنتائج الأعمال التي يهبها الله لعباده المخلصين. وقد روي أن بعض الناس سمع بحديث: «من أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»(١) فتعرض لذلك لينال الحكمة، فلم يفتح له بابها. فبلغت القصة بعض الفضلاء، فقال: هذا أخلص للحكمة ولم يخلص لله!

والخلاصة أن كل دعوة تغفل المقصد الأصلي في العبادات وتهيل تراب النسيان عليه، وتشيد بالمقاصد الفرعية التابعة، وتسلط الأضواء عليها وحدها، هي دعوة باطلة؛ لأنها تضاد القصد الأول من العبادة، بل القصد الأول من الدين، بل القصد الأول من خلق الناس، بل من خلق السموات والأرض.

● استكبار عن عبادة الله

وأما ما وراء هذه الدعوة من أغراض خبيثة؛ فإن أربابها يبطنون إلحادًا وكفرًا واستكبارًا على الله، واستنكافًا عن عبادته، ويخفون ذلك تحت ستار التحمس للأخلاق المجردة، والفضيلة الذاتية، كما يخفى السم الزعاف في الحلو والدسم. فما أجدر هؤلاء بوعيد الله:

---

(١) ذكره رزين في كتابه عن ابن عباس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

[النساء: ١٧٢، ١٧٣].

وما أجدر هؤلاء المتكبرين على الله أن يُحرموا من نور الهداية إلى الحق، واستبانة طريق الرشد، فإن الكبر يعمي ويصم، وصدق الله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾

[الأعراف: ١٤٦].

إن الله تعالى ليس في حاجة إلى عبادة أحد من خلقه؛ فهو سبحانه غني عن العالمين. وعبّاد الله ليسوا قليلين، فالكون كله يعبد الله بلغة نجهلها نحن البشر ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وحسبنا من العقلاء العابدين الملائكة في السموات السبع وفي كل مكان: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] فأين موضع هؤلاء الذين حسبوا أنفسهم كبراء على عبادة الله؟ ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

● صفات المؤمنين بين العبادة والأخلاق

إننا لا ننكر أن للخُلق والضمير مكانة أي مكانة في الإسلام، وأن الخلق مقوم أصيل من مقومات الشخصية الإسلامية، وأن أبرز ما أثنى به الله على محمد رسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] وأن الرسول ﷺ قال في بعض أحاديثه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

---

(١) رواه الحاكم وصححه.

لا ننكر شيئًا من هذا؛ وإنما الذي ننكره أن يقال: إن عبادة الله ما هي إلا أداة - مجرد أداة - لتربية ما أسموه الضمير. وليست هي الأداة الوحيدة؛ بل ليست الأداة المفضّلة في نظر هؤلاء!

إننا ننكر أن يقوّم فضل إنسان فلا يجعل لعبادة الله وزن في تقويمه وتقدير. وهذا ما حذر منه الرسول ﷺ وتنبأ به حين قال: «يأتي على الناس زمان يقال للرجل فيه: ما أظرفه! ما أعقله! ما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة من إيمان»(١).

إننا نقرأ القرآن وهو يرسم صورة تفصيلية للشخصية المؤمنة، فنجد العبادة أول مَعْلم واضح فيها. ففي سورة المؤمنون يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون ١ - ٩].

فانظر كيف جعل أول أوصافهم الخشوع في الصلاة وآخر أوصافهم المحافظة عليها، ووصفهم بفعل الزكاة وهي عبادة، مع الفضائل الخلقية الأخرى.

وفي سورة المعارج: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٣٤].

فهنا أيضًا بدأ بالصلاة وختم بها. وأضاف إليها التصديق بيوم الدين. والإشفاق من عذاب الله. بجوار الصفات الخلقية الأخرى.

---

(١) رواه البخاري.

وقد يبرز القرآن أحيانًا جانب العبادة، وأحيانًا جانب الأخلاق، لمناسبات واعتبارات توجب هذا الإبراز. ففي سورة الذاريات نجد العناية بالعبادة في وصف المتقين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٩].

وفي سورة الرعد نجد العناية بالجانب الأخلاقي في وصف أصحاب العقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٢].

ومع أن معظم الأوصاف هنا أخلاقية -لمناسبة أولى الألباب- مثل الوفاء والصلة والصبر والإنفاق. لكن الملحوظ فيها أنها ليست مجرد أخلاق «مدنية» وإنما هي أخلاق «ربانية» أو «دينية». أخلاق فيها معنى العبادة والتقوى. فهم إنما يوفون «بعهد الله» وإنما يصلون «ما أمر الله به أن يوصل». وهم إنما يفعلون ويتركون لأنهم «يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» وهم إنما يصبرون «ابتغاء وجه ربهم» فهم في كل أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله، ويرجون اليوم الآخر.

ومن أراد الإنصاف والإصلاح فلينهج نهج القرآن الحكيم؛ حيث ينظم العقائد والعبادات والأخلاق والأعمال الطيبة كلها في سلك واحد ينتظم منه عقد جميل، هو صفات المؤمن البار التقي.

نجد ذلك فيما ذكرناه من آيات في سور شتى. وفي غيرها من السور «لوحات» كثيرة تصور لنا المؤمنين الصادقين، نكتفي منها باثنتين.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

﴿صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٧].

جمعت الآية لهم بين العقيدة التي تتجلى في الإيمان بالله وما بعده وبين العمل الذي يتجلى في إيتاء المال على حبه وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبين الأخلاق التي تتجلى في الوفاء والصبر.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان : ٦٣ - ٧٥]

وهي باقة جمعت كل الأوصاف الطيبة، وأغنت عن كل تعليق.

● عبادة المؤمن لون من الأخلاق.. وأخلاقه لون من العبادة

وخلاصة ما نقوله هنا: إن العبادة عند المؤمن نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم. وكلها من مكارم الأخلاق عند الفضلاء من الناس.

ومن أجل ذلك نجد القرآن يعقب على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين لله بمثل هذه الجمل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، والصدق فضيلة خلقية خالصة، وإنما استحقوها - بل جعلت مقصورة عليهم - لأن أعلى مراتب الصدق، وأثبتها وأبقاها هو الصدق مع الله رب العالمين.

وإذا كانت العبادة عند المؤمن لونًا من الأخلاق المحمودة ، فالأخلاق عنده لون من العبادة المفروضة.

فهي - كما ذكرنا - أخلاق ربانية ، باعثها الإيمان بالله ، وحاديها الرجاء في الآخرة ، وغرضها رضوان الله ومثوبته ، فهو يصدق الحديث ، ويؤدي الأمانة ، ويفي بالعهد ، ويصبر في البأساء والضراء وحين البأس ، ويغيث اللهيف ، ويعين الضعيف ، ويرحم الصغير ، ويوقر الكبير ، ويرعى الفضيلة في سلوكه - كل ذلك ابتغاء وجه ربه ، وطلبًا لما عنده تعالى. وقد تلونا في ذلك آيات من القرآن ، ونكتفي هنا بما وصف الله به الأبرار من عباده من البذل والرحمة والإيثار ، إذ قال : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان : ٨] ثم يكشف القرآن عن حقيقة بواعثهم ، وطوايا نفوسهم ، فيقول معبرًا عن لسانهم : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان : ٩، ١٠].

ثم إن أخلاق المؤمن عبادة من ناحية أخرى ، هي أن مقياسه في الفضيلة والرذيلة ، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع و أمر الله ونهيه.

فالضمير وحده ليس بمعصوم ، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال(١).

والعقل وحده ليس بمأمون ، لأنه محدود بالبيئة والظروف. ومتأثر بالأهواء والنزعات ، وفي الاختلاف الشاسع للفلاسفة الأخلاقيين في مقياس الحكم الخلقي دليل واضح على ما نقول.

والعرف لا ثبات له ولا عموم ، لأنه يتغير من جيل إلى جيل ، وفي الجيل الواحد من بلد إلى بلد ، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم.

لذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الذي لا يضل ولا ينسى ، ولا يتأثر ولا يجور. وذلك هو حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠].

وخلاصة الخلاصة : أن المؤمن لا يعبد الله ليكون بذلك فاضلًا ، ولكنه يكون فاضلًا ليعبد بذلك الله ، وبينهما فارق لو يعلمون عظيم!

---

(١) انظر بحث «خرافة الضمير بلا إيمان» في كتابنا «الإيمان والحياة» ص ٢٥٦ .